

الرسالة الدبلوماسية في النثر الأندلسي بين مهمة التبليغ و متطلبات الفن

بحث أعد خصيصا للمؤتمر الرابع للحضارة الأندلسية
المنعقد في القاهرة بتاريخ 3-6 مارس 1998

الدكتور الربيعي بن سلامة
أستاذ محاضر في الأدب الأندلسي
معهد الآداب واللغة العربية
-جامعة قسنطينة-

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

لا شك أن الفاتحين الأوائل كانوا يدركون الخصوصية الجغرافية للأندلس قبل الشروع في عملية العبور إليها ، وقد تأكدوا من هذه الخصوصية بعد أن انتهوا من عملية الفتح ، حيث وجدوا أنفسهم معزولين عن جسم الدولة الإسلامية و منفصلين عنها . ببحر يصعب اجتيازه في حالات السلم ، فضلا عن ظروف الحرب . ولا شك أنهم أدركوا - حينما قرروا الاستقرار في الأندلس- أنهم لا يستطيعون التخلص من حتمية الجغرافيا ؛ التي لم تحكم عليهم ، فقط ، بأن يعيشوا منفصلين عن بقية شعوب الأمة الإسلامية ، وإنما حكمت عليهم بأن يجاوروا أمة مسيحية لا تختلف عنهم في عقيدتها فقط ، و إنما تختلف عنهم في عاداتها و تقاليدها أيضا . ولكن هذا الاختلاف لم يمنع الأندلسيين من أن يتكيفوا مع ظروفهم الجديدة ، بل حفزه على إظهار الكثير من التسامح و الليونة مع جيرانهم الذين أصبحوا يرتبطون معهم -فضلا عن رابطة المواطنة و الجوار- بروابط إنسانية تميزت بالكثير من الخصوبة و الثراء ، بسبب ما كان يتبادل بين الطرفين من مصالح و منافع . وعلى الرغم من حدوث الصدامات بين الأمتين من حين لآخر ، فقد تطورت المصالح و تكثفت شبكة العلاقات بينهما حتى أصبح من الصعب على الأندلسي -من كلا الطرفين- أن يتصور نفسه خارج هذا الإطار الذي يشكل طرفي المعادلة الأندلسية المتوازنة . ولضمان استمرار التوازن بين طرفي هذه المعادلة ، وضمان استمرار التفاعل الإيجابي بينهما ، كان لا بد من وسائل للاتصال بين الأمتين ، وحيث أن نظام السفراء الدائمين لم يكن معروفا آنذاك ، فقد كانت الاتصالات بينهما تتم ، بواسطة الرسل أو / والرسائل ، ولكن كتب التاريخ لم تحتفظ لنا -إلا في النادر- بالأحاديث الشفهية التي كانت تتناقلها الرسل ، و إنما احتفظت لنا ببعض الرسائل التي كانت تتبادل بين الطرفين ، و التي كانت و لا تزال من أهم وسائل الاتصال بين الأمم

أهم وسائل الاتصال بين الأمم المتحضرة .

وهذه المداخللة عبارة عن قراءة في عدد من تلك الرسائل التي تبودلت بين عدد من ملوك الأندلس الإسلامية وجيرانهم من ملوك النصارى ، أو ملوك المسلمين . وقد قسمتها إلى ثلاثة عناصر ، جعلت أولها مدخلا للتعريف بالرسالة الدبلوماسية و تحديد الإطار المنهجي لتناولها . و خصصت العنصر الثاني للحديث عن هيكل الرسالة الدبلوماسية . أما العنصر الأخير فقد تناولت فيه لغة الرسالة و بنية عباراتها .

و إذا كنت لا أستطيع أن أزعم بأنني قد وفيت هذا الموضوع الهام حقه ، أو قلت كل ما يجب أن يقال فيه ، فإنني أرجو أن أكون قد وفقت في الإشارة إلى أهميته ، و الإلمام ببعض جوانبه . وبالله التوفيق .

مدخل منهجي :

إذا كانت العادة قد جرت -لدى معظم الدارسين- على تقسيم الرسائل إلى نوعين هما : الرسائل الإخوانية و الرسائل الديوانية أو السلطانية ، فإنه يمكن تعريف الرسالة الدبلوماسية -مؤقتا- بأنها نوع من أنواع الرسائل الديوانية ، ولكن بماذا تتميز الرسالة الدبلوماسية عن غيرها من بقية أنواع الرسائل الديوانية ؟ و أين يتجسد هذا التميز ، إن وجد ، وهل هو تميز في الشكل أو في المضمون أو فيهما معا ؟

قبل أن نحاول الإجابة عن هذه الأسئلة يستحسن أن نتعرف بإيجاز على مفهوم « الدبلوماسية » الذي نسبت إليه الرسالة ، لنتعرف على الوظيفة المنوطة بها ، ولنعرف إلى أي مدى تتحكم وظيفة هذه الرسالة في تكييف شكلها و مضمونها ، فما هي الدبلوماسية ؟

للدبلوماسية تعريفات كثيرة و متنوعة (1) ، فقد عرف الدكتور سموي فوق العادة الدبلوماسية بأنها : « مجموعة القواعد و الأعراف و المبادئ الدولية التي تهتم بتنظيم العلاقات القائمة بين الدول و المنظمات الدولية ، و الأصول الواجب اتباعها في تطبيق أحكام القانون الدولي و التوفيق بين مصالح الدول المتباينة ، و فن إجراء المفاوضات في الاجتماعات و المؤتمرات الدولية و عقد الاتفاقيات و المعاهدات » . (2)

و عرفت موسوعة لاروس الدبلوماسية بأنها : « علم المعاهدات التي تنظم العلاقات الدولية // عمل و فن تمثيل بلد ما لدى أمة أجنبية ، وفي المفاوضات الدولية »

.science des traités qui régulent les relations internationales//

Action et art de représenter son pays auprès d'une nation

étrangère et dans les négociations internationales . " (3)

وإذا كان التعريف الذي أورده موسوعة لاروس لا يختلف كثيرا عن تعريف معجم سموي فوق العادة ، فإنه يبدو أكثر إيجازا و أكثر ملاءمة لروح الدبلوماسية ، لأن الدبلوماسية فيه تقوم على ثلاثة عناصر هي : « 1- العلم ،

2- العمل ، 3- الفن» وبذلك يفسح هذا التعريف مجالا واسعا للعبقيرية الشخصية في العملية الدبلوماسية ، حين جعلها « فنا لتمثيل بلاد ما لدى أمة أجنبية»

وإذا كانت الدبلوماسية فنا فإنه لا يكفي في الدبلوماسي أن يكون عالما بقواعد القوانين و الأعراف الدولية ، وأن يكون على دراية بالأصول الواجب اتباعها في تطبيق تلك القواعد و الأعراف ، وإنما يجب عليه ، بالإضافة إلى ذلك ، أن يكون فنانا أيضا .

وحيث أنه لم يكن للدولة في العصور الوسطى سفراء دائمون يمثلونها لدى الدول الأخرى و يسهرون على حماية مصالحها ، لأن نظام السفراء الدائمين لم ينتشر في أوروبا إلا خلال القرن السابع عشر (4) ، فقد كانت المراسلة من أهم الوسائل التي تحافظ بها الدولة على مصالحها لدى الدول الأخرى ، بل ربما كانت أهم وسيلة للحوار السلمي الهادئ بين الأمم المتحضرة . ومن هنا كانت تستمد الرسالة الدبلوماسية قيمتها و أهميتها ، أنداك ، ولهذا السبب أيضا كانت رتبة كاتب الرسائل من أعلى الرتب في الأندلس ، إذ كانت « عادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب» (5)

وانطلاقا مما تقدم يمكن أن نعرف الرسالة الدبلوماسية بأنها ذلك النوع من الرسائل التي كانت تتبادل بين الدول على مستوى الملوك أو الرؤساء أو الوزراء أو من يمثلونهم لضمان مصلحة كل دولة لدى غيرها من بقية الدول .

أما قولنا: «تتبادل بين الدول» فذلك لتمييزها عن غيرها من بقية الرسائل الديوانية ، فهي و إن كانت تتفق معها في صدورهما جميعا عن الجهات الرسمية فإنها تختلف عنها في موردها «المرسل إليه» الذي لا يمكن أن يكون -في الرسالة الدبلوماسية- واحدا من مواطني الدولة المرسلة أو رعاياها ، وإنما يكون دولة أو هيئة أجنبية .

وأما قولنا «لضمان مصلحة الدولة» فذلك يعني أن الهدف الأول من الرسالة الدبلوماسية هو ضمان المصلحة ، بغض النظر عن موضوع الرسالة ، الذي يمكن أن يكون في شأن خطير من شؤون الدولة ، كما يمكن أن يكون في

تهنئة أو مجاملة . وقد تضطر الرسالة الدبلوماسية -في بعض الأحيان- إلى شيء من التنازل أو التساهل في سبيل تحقيق مصلحة الدولة أو المحافظة عليها .

ولكي تؤدي الرسالة الدبلوماسية وظيفتها على أكمل وجه يجب عليها أن تلتزم بمجموعة من الأعراف و الرسوم التي أصبحت ، مع الزمن ، قواعد لا تجوز مخالفتها ، كما يجب عليها أن تستخدم لتحقيق أهدافها ، لغة متميزة عن اللغة العادية ببعض السمات .

ولكن أود ، قبل الشروع في معالجة هذه العناصر ، أن أنبه إلى نقطة منهجية تتعلق بالعنوان الذي اخترته لهذه المداخلة « الرسالة الدبلوماسية في النثر الأندلسي » وهي أنني قد حصرتها في النثر لأخرج بعض الرسائل الدبلوماسية التي كتبت شعرا ، مثل الرسالة التي وجهها أبو عبد الله الصغير ، بعد أن خلع عن عرش غرناطة ، إلى الشيخ الوطاسي صاحب فاس (6) أو تلك التي وجهها الأندلسيون إلى السلطان بايزيد العثماني (7) غيرهما . ولكن حصر الرسالة في النثر الأندلسي لا يعني أنني قد أحطت بكل الرسائل الدبلوماسية التي كتبت نثرا ، لأن ذلك أمر لا أستطيع أن أزعمه لنفسي ، ولأنه أكبر بكثير من أن تستوعبه مثل هذه الدراسة المحدودة ، وإنما أعني بـ « النثر الأندلسي » عددا محدودا من الرسائل ، يمكن حصره في ثلاث مجموعات هي :

1- مجموعة الرسائل التي أوردها الأمير شكيب أرسلان في الجزء الثاني من كتابه « الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية » وهي رسائل بعث بها عدد من سلاطين بني الأحمر و وزراءهم إلى عدد من ملوك أراغون و وزراءهم .

2- مجموعة الرسائل التي احتواها كتاب « ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب » لابن الخطيب ، وهي الرسائل التي كتبها ابن الخطيب عن عدد من ملوك بني الأحمر إلى عدد من ملوك الدول الإسلامية ، وقد ورد بعضها في كتب أخرى كالإحاطة و النفع .

3- وهناك مجموعة ثالثة جاءت متفرقة في عدة كتب ، منها ما جاء في

كتاب الذخيرة لابن بسام - وإن كانت في معظمها مبتورة المقدمات - ومنها ما جاء في « كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية » لمؤلف مجهول ، ومنها واحدة في الذخيرة السنية لمؤلف مجهول أيضا ، كما جاء بعضها في كتب مشرقية ، مثل صبح الأعشى للقلقشندي ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وأخيرا ما جاء منها في كتاب « الوثائق السياسية و الإدارية في الأندلس و شمالي إفريقيا » لمحمد ماهر حمادة ، وهي مجموعة من مصادر و مراجع مختلفة .

فمن هذه المجموعات حاولت أن أرسم صورة لهيكل الرسالة الدبلوماسية في الأندلس ، ومنها أيضا حاولت أن أستخلص بعضا من مميزات لغتها و أسلوبها . ولهذا فإن الملاحظات أو النتائج التي توصلت إليها لا تعني بالضرورة كل النثر الأندلسي ، كما قد يوحي بذلك العنوان ، وإنما يجب أخذها على أنها نتائج مؤقتة قد تكشف الأيام عما يخالفها جزئيا أو كليا ، إذا ظهرت مجموعات أخرى من الرسائل الدبلوماسية في الأندلس .

ولمعرفة أهم المفصلات التي تتكون منها هذه الرسالة و معرفة أهم ما يميز لغتها و بنية عبارتها من سمات رأيت أن أقسم موضوع هذه المداخلة إلى عنصرين أجعل أولهما للتعريف بهيكل الرسالة الدبلوماسية في النثر الأندلسي و أخصص الثاني للحديث عن لغتها و بناء عبارتها .

أولا : هيكل الرسالة الدبلوماسية

إذا كانت الرسالة الدبلوماسية - على اختلاف عصورها - تشترك في تأدية وظيفة واحدة ، كما قلنا ، وهي المحافظة على مصلحة الدولة (أو الأمة) لدى غيرها من بقية الدول (أو الأمم) فإنها تشترك أيضا في الكثير من الخصائص البنائية ، و تتشابه هياكلها في الكثير من النواحي ، بحيث تتكون ، في الغالب ، من مقدمة و غرض أساس و خاتمة . وقد يكون الغرض الأساس في الرسالة الدبلوماسية تمهيدا لعقد معاهدة صداقة أو تهديدا بقطع العلاقات بين الدولتين ، كما قد يكون في تهنئة أو تعزية ... و لكنه ليس مهما لذاته ، لأنه لا

يعدو ، في جميع الحالات ، أن يكون وسيلة لتحقيق مصلحة جديدة أو للمحافظة على مصلحة قائمة للدولة المرسله ، فضلا عن هذا فإنه يكون -غالبا- متضمنا في مقدمة الرسالة تصريحاً أو تلميحاً ، ولذلك فإننا لا نرى ضرورة لإفراده بفقرة خاصة في هذه الدراسة التي سنكتفي فيها بالتوقف عند المقدمة و الخاتمة .

1- مقدمة الرسالة الدبلوماسية .

إذا كانت مقدمة الرسالة هي المدخل الذي يمهّد به الكاتب لعرض غرضه ، كما يقول الدكتور علي بن محمد (8) -وهو يتحدث عن الرسالة في القرن الخامس- فإن الرسالة الدبلوماسية لم تشذ عن هذه القاعدة ، ولكنها لم تلتزم نمطا واحدا من المقدمات ، وإنما اختلفت مقدماتها باختلاف العصور و الكتاب ، و تنوعت بتنوع مصادرها و مواردها ، كما تأثرت بنوع العلاقة بين المصدر و المورد .

وإذا كنا لا نستطيع أن نرسم صورة واضحة لمقدمة هذه الرسالة في مراحلها الأولى ، بسبب ضياع الكثير من النصوص و بتر مقدمات الكثير منها -و بخاصة تلك التي كانت تنظم العلاقة بين الدولة الإسلامية في الأندلس و جاراتها من الدول المسيحية- فإننا نستطيع ، بالاعتماد على ما وصلنا ، أن نميز بين مرحلتين ؛ تمتد أولاهما من الفتح إلى أوائل القرن الخامس الهجري ، و تشمل ثانيتهما القرن الخامس و ما تلاه من القرون .

ويمكن اعتبار المرحلة الأولى مرحلة بداية أو مرحلة تأسيس لقواعد الكتابة الدبلوماسية في الأندلس ، وأهم ما يميز هذه المرحلة هو قلة نصوصها و إيجاز مقدمات رسائلها ، كما نرى ذلك في مقدمة العهد الذي كتبته عبد العزيز بن موسى بن نصير للملك تدمير سنة 94 هـ ، والذي استهله بقوله :

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش أنه نزل على الصلح...»(9).

ونلاحظ أن المقدمة ، هنا ، قد احتوت على عنصرين ، هما :

(i) البسملة

(ب) العنوان الذي عين المرسل و المرسل إليه ، انتقل بعدهما الكاتب إلى غرض الرسالة مباشرة بقوله : « أنه نزل على الصلح... »
و بعده نجد كتاب أمان و صلح أصدره عبد الرحمن الداخل لجيرانه من نصارى قشتالة سنة 142 هـ ، استهله بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم. كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة و الرهبان و الأعيان و النصارى و الأندلسيين أهل قشتالة ، و من تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان و سلام ، و شهد على نفسه... » (10)
والملاحظ أن هذه المقدمة لم تكتف بالعنصرين اللذين اكتفت بهما مقدمة الكتاب السابق ، وهما : (1) البسملة و (2) العنوان ، وإنما أُلح كاتبتها إلى غرض سنة في أول العنوان حينما قال : « كتاب أمان » و أكدده في آخره بقوله : « كتاب أمان و سلام... »

وبعد ثلاثة و ثمانين عاما من الزمن نجد رسالة جوابية من الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى امبراطور بيزنطة (تيوفيلس) (11) الذي بعث إليه سنة 225 هـ / 839 م برسالة يعرض عليه فيها التحالف ضد المأمون العباسي ، و يغريه بمساعدته على استعادة مملكة أجداده في المشرق ، فرد عليه عبد الرحمن برفضه اقتراحه- (12) برسالة مهذبة استهلهها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا في المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا... » (13)

و نلاحظ أن الكاتب ، هنا ، قد تخلى عن عنصر العنوان ، واكتفى بالبسملة لينتقل بعدها إلى الغرض مباشرة بقوله : « أما بعد... » ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عدم استقرار قواعد الكتابة الدبلوماسية في الأندلس آنذاك ، مما يتيح للكاتب حرية التصرف بالزيادة أو الحذف .

وإذا كانت تلك هي بعض ملامح المقدمة في المرحلة الأولى ، فإن الأمر قد اختلف خلال القرن الخامس ، حيث تطورت كتابة الرسائل و اتضحت معالمها إلى درجة أن استطاع أبو القاسم الكلاعي -في القرن السادس- أن يستخلص من

نماذجها قواعد نظرية ضمنها كتابه «إحكام صنعة الكلام» الذي حدد فيه العناصر التي يجب أو يستحسن أن تتكون منها مقدمة الرسالة ، و تناول كل واحد منها في فصل خاص ، ويمكن أن نوجز تلك العناصر فيما يلي :

1- العنوان : وفيه يتم تعيين المرسل و المرسل إليه ، و أبسط صيغه أن يقال : « من فلان إلى فلان » (14).

2- البسملة أو الاستفتاح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) و تكتب بعد العنوان (15)

3- الصلاة على النبي ، وكانت تأتي بصيغ مختلفة ، و لكنها أصبحت ، في عصر الكلاعي ، من العناصر التي لا يخلو منها كتاب (16) ، و قد ذكرها الأستاذ محمد توات باسم «التصلية» (17) وهي صيغة لا أصل لها ، بل هي صيغة منهي عنها كما ورد في لسان العرب ، حيث قال الأزهري : « تقول صليت صلاة ، ولا تقل تصلية » (18).

وبعد هذه العناصر ينتقل الكاتب إلى غرض الرسالة باستعمال «أما بعد» أو بالسلام أو غيرهما...

وإذا كانت تلك هي عناصر مقدمة الرسالة ، كما استقرت في أواخر القرن الخامس و أوائل القرن السادس ، فإن كتاب الرسالة الدبلوماسية لم يلزموا أنفسهم بعدها ، ولم يتقيدوا بترتيبها ، وإنما تركوا لأنفسهم الحرية في التقديم و التأخير و الحذف و الزيادة ، كما كان يفعل من سبقهم ، ومن أول ما لدينا من الأمثلة في هذا الباب رسالة المعتمد بن عباد التي استصرخ بها يوسف بن تاشفين سنة 479 هـ ، وهي من إنشائه ، كما قال صاحب الطل الموشية ، و قد استهلها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله و صحبه وسلم تسليما.

إلى حضرة الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين . من القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، الأيد بحزمها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله و بطولها محمد بن عباد .

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية و رحمة الله و بركاته. و كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غرة جمادي الأولى سنة تسع و سبعين و أربعمائة...»(19).

ونلاحظ أن المعتمد بن عباد ، هنا ، قد جعل البسملة و الصلاة على النبي قبل عنوان الرسالة الذي يعين المرسل و المرسل إليه ، والذي كان يحتل مكان الصدارة عند أبي القاسم الكلاعي ، مما يوحي بأن القواعد التي استخلصها الكلاعي لم تكن شائعة في كل رسائل أواخر القرن الخامس و بداية القرن السادس ، كما قد يفهم من كلام الدكتور علي بن محمد (20).

كما نلاحظ أن المعتمد قد قدم في العنوان المرسل إليه على المرسل ، فلم يقل : من المعتمد إلى يوسف بن تاشفين ، وإنما قال: «إلى أمير المؤمنين...يوسف بن تاشفين من القائم بعظيم إكبارها...» وهو إنما فعل ذلك لغرض دبلوماسي رمى من ورائه إلى إشعار ابن تاشفين بمسؤوليته عما يجري في الأندلس ، لأنه رأى أن «يقدم في اللفظ من قدمت كفايته و عنايته و أن يكتب إلى من هو أرفع منه فيبدأ بذكر خطه ثم يأتي بكنيته...ثم ينحو في الكتابة عن نفسه»(21).

ولم يكتف المعتمد بتأخير نفسه -وهو المرسل- و إنما أشار ، وهو يتحدث عن نفسه، بوضوح إلى غرض الرسالة حين قال : «من القائم بعظيم إكبارها الشاكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها الأيد بحزمها ، المنقطع إلى سمو مجدها ، المستجير بالله و بطولها محمد بن عباد .»

ولم يتوقف المعتمد عند العناصر التي حددها الكلاعي ، وإنما أضاف إليها عنصرين جديدين ، وهما تعيين مكان صدور الرسالة و تحديد تاريخ صدورها ، وبذلك يكون المعتمد قد رسم بلباقته الدبلوماسية نمودجا مكتملا ، تقريبا ، لما ستسير عليه مقدمة الرسالة الدبلوماسية بعد ذلك ، فهي و إن كانت قد تطورت في صياغتها و استجلبت بعض العناصر الجديدة لتركيبتها ، كالتحميد و الدعاء ، إلا أنها ظلت مرنة فيما يتعلق برتبة المرسل و المرسل إليه في العنوان ، بحيث يستطيع القارئ أن يدرك رتبة المرسل وعلاقته بالمرسل إليه من عنوان الرسالة ، وقد يتفطن من خلاله ، أيضا ، إلى موقف المرسل من المرسل إليه .

ويمكن لمن يتتبع مقدمات الرسائل التي كتبها ملوك بني الأحمر ووزراؤهم إلى جيرانهم من ملوك أراغون و ملوك المغرب و تلمسان و غيرهم أن يصنف تلك الرسائل ، بحسب عناوينها ، إلى ثلاثة مستويات :

1- من ملك إلى ملك. 2- من ملك إلى وزير أو أمير3- من وزير إلى ملك
أما إذا كانت الرسالة من ملك إلى ملك فإن ترتيب المرسل بالنسبة للمرسل إليه ، في عنوانها ، يتوقف على حالة الملك المرسل و نوعية علاقته بالمرسل إليه ، كما يتوقف على موضوع الرسالة نفسها. فإذا كانت الرسالة تتضمن المصادقة على معاهدة ما ، فإنها تلتزم -عادة - صيغة واحدة يقدم فيها اسم المرسل على اسم المرسل إليه ، ويكون على نحو ما نرى في رسالة محمد الثالث إلى الدون خايمه ملك أراغون(22)التي جاءت مقدمتها كما يلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد الكريم وعلى آله و صحبه و سلم تسليما. ليعلم كل من يقف على هذا الكتاب أننا الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي عبد الله نصر ، سلطان غرناطة ومالقة وما إليها و أمير المسلمين ، ننعلم لكم أيها السلطان المعظم دون خايم ملك أراغون و بلنسية و مرسية و كند برجلونة ، أن نكون لكم صاحباً وفيها ، ويكون بيننا و بينكم صلح ثابت...»(23)

وقد حررت هذه الرسالة سنة 701 هـ ثم تكرر ما يطابقها ، تقريبا ، في أربع رسائل أخرى تضمنت مصادقة عدد من ملوك بني الأحمر على معاهدات أبرمت بينهم و بين ملوك أراغون ، كان آخرها الرسالة التي تضمنت مصادقة السلطان يوسف الأول على معاهدة بينه و بين دون بطره ملك أراغون (24) سنة 745 هـ.(25).

وما يمكن ملاحظته على هذه الرسائل التي تضمنت المصادقة على عدد من المعاهدات هو أن مصادقة المرسل إنما تكون بعد مصادقة المرسل إليه ،

وفي هذه الحالة يكون المرسل في موقف قوة ، ولهذا يحرص على تقديم ذكر اسمه في العنوان ليعلن عن قوته ، منذ البداية ، ولكن بطريقة دبلوماسية . أما إذا تضمنت الرسالة شأنًا من شؤون الحياة العامة كتأكيد الوفاء بالمعاهدات السابقة ، أولفت انتباه الدولة المجاورة إلى بعض التجاوزات التي يرتكبها رعاياها ضد مواطني الدولة المرسلة و مطالبتها برفع الظلم عنهم ، أو تضمنت تعزية أو تهنئة ، فإنها -عادة - يقدم في عنوانها اسم المرسل إليه ، ومن ذلك على سبيل المثال الرسالة التي كتبها يوسف الأول لتعزية الملك دون بطره في والده دون الفونسو و تهنئته باعتلاء عرش أراغون سنة 736 هـ ، حيث استهلها بقوله :

«بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا و مولانا محمد رسوله الكريم وآله وسلم تسليما .

السلطان الأجل الأكرم المرفع المبرور المشكور ، الأوفى الأخلص دون بطره ملك أراغون

وسلطان بلنسية و قرسقة و سردانبة و قمط برجلونة . وصل الله عزته بتقواه وأسعده بطاعته و رضاه ، مكرم جانبه و شاكر مقاصده في الصلابة ومذاهبه الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرح بن نصر ، سلطان غرناطة ومالقة و المربة و وادي آش ، وما إليها و أمير المسلمين . أما بعد فإننا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة ، حرسها الله ..»(26)

و نلاحظ ، هنا ، أنه لم يكتف في عنوانه بتقديم المرسل إليه ، وإنما قرن اسمه بالدعاء له أيضا. وقد تكررت هذه المقدمة بكل ما تحمله من معاني التوقير و التبجيل فيما لا يقل عن اثنتي عشرة رسالة أرسلها ملوك بني الأحمر إلى ملوك أراغون لمطالبتهم بضرورة الالتزام بالعهد المبرمة بين الطرفين ، منها رسالتان من اسماعيل الأول إلى خايمي الثاني (27) و كلها قدم في عناوينها المرسل إليه الذي كان يذكر دائما بـ «السلطان الأجل...» أو «السلطان المعظم...»

أما ما أورده القلقشندي في الحديث عن المكاتبات الصادرة إلى ملوك الكفر عن ملوك المغرب حين قال : «والرسم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ «كتابنا» و المخاطبة بنون الجمع عن المكتوب عنه و ميم الجمع عن المكتوب إليه...كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن أبي جميل زيان إلى ملك قشتالة (28) من بلاد الأندلس في مراودة الصلح .

«كتابنا إليكم ، أسعدكم الله برضاه ، و أدام عزتكم و كرامتكم بتقواه ، من مرسية و نحن نحمد الله الذي لا شئ كمثلته...» (29) فإنه ، في تقديرنا ، قول يحتمل أحد وجهين ؛ أولهما أنه لم يتوفر لدى القلقشندي من نماذج الرسائل التي كتبها ملوك الأندلس إلى جيرانهم من ملوك النصرى إلا رسالة ابن عميرة هذه فاعتبرها نموذجا واستنتج منها قاعدة. و أما ثانيهما فإنه يحتمل أن تكون النماذج التي اطلع عليها القلقشندي من النوع الذي بترت مقدماته ، وهو كثير في كتب المختارات التي غالبا ما يستغنى فيها المؤلفون عن مقدمات الرسائل ، مثلما نرى ذلك في العديد من النماذج التي أوردها ابن بسام في الذخيرة ، وهي أكثر من أن يمثل لها .

و أما دعوة بعض المنظرين ، كأبي القاسم الكلاعي ، إلى عدم مخاطبة أهل الكفر بما يرفع أقدارهم ، حين قال : إنه «مما يجب -أعزك الله - في مكاتبة أهل الكفر أن يترك تبجيلهم و يتجنب ترفيعهم و تأهيلهم ، وأن ينظروا بعين والصغار...» (30) ، فإنه لا يجوز أخذها على ما الاحتقار ، و يتعمدوا بالذلة تفيده من تعميم ، لأن أخذها على ظاهرها يتناقض مع كثير من نصوص الكتاب و السنة ، و يتناقض مع روح التسامح الإسلامي ، كما يتعارض مع المهمة الدبلوماسية التي يجب أن تكون «مهمة تلطيفية ودية ، مهمة يكون صاحبها آخر من يقر العداء و الحرب بين الأمم...» (31) و فضلا عن كل هذا فإن هذا الرأي يتناقض مع الواقع أيضا ، إذ ليس بين أيدينا -فيما أعلم - من الرسائل المتبادلة بين ملوك الأندلس و جيرانهم من ملوك النصرى رسالة تجاوزت حدود اللياقة الدبلوماسية إلا تلك التي كتبها المعتمد بن عباد ردا على ألفونسو السادس (32) الذي كتب إليه ، بعد أن استولى على طليطلة ،

مهّدا بالاستيلاء على إشبيلية ، فرد عليه المعتمد برسالة استهلها بقوله :
 « من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله
 أبي بكر عمرو ابن عباد إلى الطاغية الباغية إذ فنش بن شانجه الذي لقب نفسه
 بملك الملوك وسماها بذي اللتين قطع الله بدعواه... » (33)
 ولا يتغير هذا التقليد في عناوين الرسائل الموجهة من قبل و
 ملوك المغرب أو تلمسان ، فقد كانوا يحرصون على تقديم ملوك الأندلس إلى
 اسم المرسل إليه في الرسائل التي يكتبونها إلى ملوك المغرب ، وهذا ما نراه
 في تلك الرسالة التي كتبها محمد الثاني سنة 673 هـ يستنجد بأبي يوسف
 المريني ، والتي استهلها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا محمد و سلم ، إلى الملك
 المؤيد بفضل الله العادل الهمام ذي الشيم المحمود والاهتمام أمير المسلمين
 وناصر الدين المجتهد في إقامة دعوة الحق أبي يوسف بن عبد الحق نور الله
 تعالى به الآفاق و جمل ببهائه الجيوش و الرفاق من وليه ومحبه في الله تعالى
 ، المستجير برحمة الله تعالى و عونه ، و المبتهل له في الدعاء في ائتلاف كلمة
 الإسلام و صلاح شأنه محمد بن يوسف بن الأحمر ابن نصر... » (34).
 و نلاحظ أن الكاتب لم يكتف بتقديم المرسل إليه ، و إنما أشار في أثناء
 ذلك إلى غرض الرسالة بوضوح .

و يندرج ضمن هذا الاتجاه معظم رسائل الريحانة التي كتبها ابن
 الخطيب عن ملوك بني الأحمر إلى ملوك المغرب ، والتي كان يقدم في عناوينها
 اسم المرسل إليه - بعد الافتتاح الذي يحذف عادة - فيقال : « المقام الذي » أو
 « الخلافة التي »... ويبدو أن القلقشندي لم يتفطن إلى أن ابن الخطيب كان يحذف
 افتتاحيات رسائله في كتبه و لا يشير إلى ذلك ، في معظم الأحيان ، فظن أنها
 كانت تفتتح بلفظ « المقام » (35) أو « الإمارة » (36) ، و الواقع أنها لم تكن تفتتح
 بـ « المقام » أو « الخلافة » أو « الإمارة » و إنما كانت تفتتح بالبسملة و الصلاة على
 النبي المحذوفين ، وقد كان ابن الخطيب يشير إلى هذا الحذف أحيانا ، فيقول :
 « وهي بعد الفاتحة » المقام الذي (37) أو « وهي بعد سطر الافتتاح » المقام الذي

وتقديم اسم المرسل إليه ، هنا ، سلوك دبلوماسي تبرره مواجهة ملوك بني الأحمر للملوك قشتالة و أراغون و حاجاتهم الدائمة للاستعانة بملوك المغرب في التصدي لضغوط جيرانهم النصارى. ولكن الأمر يختلف حينما توجه الرسالة إلى ملوك بني زيان ، حيث كان ملوك بني الأحمر يحرصون-غالبا-على تقديم ذكر اسم المرسل في عنوانها ، كما نرى في الرسالة التي كتبها ابن الخطيب عن محمد الخامس إلى أبي حمو موسى الزياني ، صاحب تلمسان ، يهنئه باستعادة ملكه ، حيث استهل عنوانها بقوله :

« من الأمير عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج بن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر أيداه الله و أعز نصره ، إلى السلطان الكذا ، وصل الله له أسباب العناية... »(39).

ولا شك أن هذا السلوك يعكس موقف ملوك بني الأحمر من ملوك بني زيان ، وهو موقف لا يتعدى المجاملة ، لأن دولة بني زيان كانت -بموقعها بين فكي رحى الحفصيين في الشرق والمرينيين في الغرب- أضعف من أن يستعين بها بنو الأحمر أو يحرصوا على رضاها .

أما إذا انتقلنا إلى الرسائل الصادرة عن ملوك النصارى إلى ملوك الأندلس و المغرب - وهي قليلة جدا- فإننا لا نجدها تختلف كثيرا عن تلك التي صدرت عن ملوك الإسلام ، إذ تخضع المقدمة فيها إلى الاعتبارات نفسها ، بحيث يقدم المرسل اسمه ، في العنوان ، على اسم المرسل إليه إذا كان يتحدث من موقع قوة ، أو يريد أن يشعر من يكتب إليه بذلك ، و هذا ما نراه في رسالة ألفونسو السادس إلى المعتمد بن عباد ، حيث استهلها بقوله : « من الإنبيطور ذي الملتين ، الملك المفضل إذ فنش بن شانجه (40) إلى المعتمد بالله ، سدد الله أراءه ، وبصره مقاصد الرشاد ، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنا و نبتت في ربه المنى... »(41)

كما نرى الترتيب نفسه في الرسالة التي بعث بها الفونسو إلى يوسف بن تاشفين يطلب لقاءه في معركة حاسمة ، والتي استهلها بقوله :
« من أمير النصرانية إذ فنش بن فردلند إلى يوسف بن تاشفين .
أما بعد فإنك اليوم أمير المسلمين... » (42)

ولا يخفى على أحد ما في هذين العنوانين من عنهجية و تطاول ، إذ لم يكتف ألفونسو فيهما بتقديم اسمه ، وإنما عمد إلى تضخيم نفسه بعدد من الألقاب و تقزيم مخاطبيه بتجريدهما من كل لقب .
وقد تكرر مثل هذا تقريبا في الرسالة التي بعث بها حفيده ألفونسو الثامن (43) إلى الخليفة الموحد يعقوب المنصور يدعوه إلى معركة فاصلة بينهما قبيل سنة 607هـ (44).

ولكن الأمر يختلف إذا كان الملك المرسل يتحدث من موقف ضعيف ، أو يطلب حاجة من المرسل إليه . وهذا ما نراه في تلك الرسالة التي وجهها أحد ملوك أراغون (45) إلى المستنصر الموحي يلمس نصرته لاستعادة عرشه ، بعد أن نازعه فيه بعض أقاربه ، وقد حررها باسمه أبو المطرف بن عميرة ، فجاءت مقدمتها كما يلي :

« الحضرة الإمامية المنصورة الأعلام ، الناصرة للإسلام ، المخصوصة من العدل و الإحسان بما يجلو نوره متراكم الإظلام ، حضرة سيدنا و مولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن سادتنا الخلفاء الراشدين ، وصل الله لها إسعاد القدر ، وإنجاد النصر و الظفر ، ولا زال مقامها الأعلى سامي النظر ، مبارك الورد و الصدر ، و يفيض منه الجود فيض المطر ، ويحيط به السعود إحاطة الهالة بالقمر . نشأة أيامها الغر ، وربي إنعامها المواظب على الحمد و الشكر ، المشرف باستخدامها الذي هو نعم العون على التقوى و البر ، عبدها وابن عبدها فلان .

سلام الله الطيب المبارك و تحياته تخلص المقام الأشرف... » (46)

أما الرسائل الصادرة عن الملوك إلى من هم دونهم ، فقد جرت العادة فيها

على تقديم اسم المرسل على اسم المرسل إليه في العنوان ، كما نرى في الرسالة التي كتبها إسماعيل الأول إلى نائب ملك أراغون في أريوله (47) و لكن حرج موقف الدولة المرسله قد يضطرها إلى التنازل عن هذه القاعدة و يجبر ملكها على تقديم اسم المرسل إليه ولو كان دونه مرتبة ، وهذا ما نراه في الرسالة التي كتبها ابن الخطيب عن سلطانه أبي الحجاج إلى الأمير الناصر بن السلطان أبي الحسن المريني ، حيث افتتح عنوانها بقوله :

«الإمارة التي لم تزل للمكارم الراضية ، والعزائم الماضية ، والجلالة الراقية ، والأعمال الصالحة الباقية ، إمارة محل أخينا الذي نعظم مجده السامي الجلال و نثني على شيمه الطاهرة الخلال...» (48) فموقف أبي الحجاج ، هنا ، تجاوز المجاملة إلى التنازل ، ولكنه تنازل يرجى من ورائه تحقيق مصلحة حيوية لدولته ، ولذلك فهو تنازل محسوب دبلوماسيا .

و أما الرسائل التي وجهت من وزراء بني الأحمر إلى ملوك أراغون فقد جاءت جميع مقدماتها على نمط واحد ، حرص فيه الكتاب -بغض النظر عن موضوع الرسالة -على تقديم اسم الملك المرسل إليه في العنوان ، كما حرصوا على مخاطبته بـ «مولاي» (49) أو بـ «الملك المعظم» (50) وهذا ، دون شك ، سلوك كانت تقتضيه متطلبات الدبلوماسية التي تستوجب تقديم ذوي الرتب العليا على من هم دونهم .

و نلاحظ أن الرسائل التي كتبها ملوك بني الأحمر ووزراؤهم إلى جيرانهم من ملوك أراغون و وزراءهم قد تميزت عن غيرها من الرسائل بعدم حرصها على الإشارة إلى موضوع الرسالة في عنوانها ، وهي ميزة لم أهتم إلى تفسيرها حتى الآن .

و أما الانتقال من مقدمة الرسالة إلى موضوعها فقد كان يتم بالاعتماد على عبارة «أما بعد» أو «بالقاء السلام» أو بعبارة «كتابنا إليكم» أو «كتبناه إليكم» أو «كتبته / كتبه إليكم...» ويتبع في الحالة الأخيرة - عادة - بتحديد مكان الصدور ، وهذه الصيغ أكثر من أن يمثل لها.

وإذا كان أبو القاسم الكلاعي قد أورد أن عبارة «أما بعد» كانت تستعمل

-غالبا - «في المخاشنة و العتاب» (51) فإن ما بين أيدينا من الرسائل لا يدل على اطراد هذا الاستعمال ، بل نجدها في رسائل التهديد و المخاشنة كما نجدها في رسائل الاستنجاد

والمهادنة على السواء . ولكن يبدو أن استعمال هذه العبارة كان خاصا بالرسائل المتبادلة بين الأنداد ، ولم يكن شائعا في الرسائل الموجهة من ذوي الرتب الدنيا إلى من هم أعلى منهم ، وهذا ما نلاحظه في تلك الرسائل التي كتبها وزراء بني الأحمر إلى ملوك أراغون ، وهي ست رسائل لم ترد عبارة «أما بعد» في واحدة منها ، و إنما كان الانتقال من المقدمة إلى الغرض فيها يتم باستعمال عبارة : «كتبت لك أيها الملك المعظم» (52) أو «كتبه إليكم من باب مولاه/ أو مولانا/ أو كتب إليكم من الباب الكريم» (53) وقد يتم الانتقال من المقدمة إلى غرض الرسالة بإلقاء السلام ، كما ورد في رسالة الوزير على بن كماشة إلى الأمير دون بطره بن ألفونسو الأراغوني حيث انتقل بقوله : «يسلم عليكم مقبل يديكم و خديمكم على بن كماشة» (54).

وقد تكون المرتبة الدنيا اعتبارية، أو يتقمصها المرسل لغرض دبلوماسي ، كما نرى ذلك في رسالة المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، حيث لم يكتف كما رأينا ، بتقديم اسم المرسل إليه و إنما انتقل إلى غرضه باستعمال عبارة : «وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية ...» و كذلك فعل الملك الأراغوني المخلوع في رسالته إلى المستنصر الموحيدي ، حيث لم يكتف بتقديم الخليفة على نفسه في العنوان و إنما انتقل إلى غرضه بقوله : «سلام الله الطيب المبارك و تحياته تخلص المقام الأشرف الأعلى ورحمة الله و بركاته...». وعموما ، فقد كانت مقدمة الرسالة تعبر -غالبا- عن موقف كس مكانتها من الدولة المرسل إليها ، وهكذا نرى أن الدولة المرسله ترتيب عناصر المقدمة في الرسالة الدبلوماسية كان يتأثر باختلاف الدرجة بين المرسل و المرسل إليه ، كما يتأثر بموضوع الرسالة أو غرضها الذي سيظهر بشكل آخر .

2- خاتمة الرسالة الدبلوماسية .

إذا تجاوزنا الغرض الرئيس للرسالة الدبلوماسية -وهو الذي سبق أن رأينا المقدمة تشير إليه تلميحا أو تصريحاً - وحاولنا التعرف على خاتمتها فإننا نجد أنها تختلف ، باختلاف الكتاب وباختلاف مصدر الرسالة و مورها ، اختلافات يصعب حصرها أو تحديدها بدقة ، ومع ذلك يمكن -بشيء من التجاوز أو المرونة - أن نصنفها إلى خمسة أنواع :

2.1 -التوقف دون خاتمة : وفي هذا النمط من الرسائل لا يعلن الكاتب عن انتهاء رسالته وإنما يتوقف بطريقة مفاجئة لا ينتظرها القارئ أو المتلقي ، وكأن الكاتب يريد أن يترك رسالته مفتوحة لاستقبال احتمالات أخرى ، وبهذا النمط انتهت الرسالة التي كتبها المتوكل على الله بن الألفطس في الرد على تهديد الملك الفونسو ، حيث ختمها بقوله : «...وما تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة ، أو شهادة في سبيل الله ، فيالها من جنة ، وفي الله العوض مما به هددت و فرج يبتري ما مددت ويقطع بك فيما أعددت»(55).

2.2- الإيحاء باقتراب الخاتمة و التوقف دون خاتمة :وهو خاص ينوع من الرسائل الدبلوماسية المحمولة ، وهي التي يتسلمها الملوك -عادة - من أيدي مبعوثين خاصين ، لا يكتفون بتسليمها وإنما يقومون بشرحها و تفصيلها ، ويكون الإيحاء بقرب انتهاء الرسالة مصاحبا للإشارة بأنها رسالة محمولة. ومن هذا النمط رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى امبراطور بيزنطة التي أنهاها بقوله : «...ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحين من قبلنا ، فاكتب إلينا مفهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، الذي يجب عليك من سائر خبرك و متعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله.»(56)

ويقتررب من هذا ما ختم به ابن أيمن رسالته التي كتبها على لسان سلطانه في استصراخ يوسف بن تاشفين -بعد أن هدده ألفونسو السادس-و التي أنهاها بقوله : «...وكتابي هذا جملة الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها و مشتمل

على نكتة هو يوضحها ويبينها...وأنت بفضلك تستوعب ما يؤديه استيعاب المستوفي و تصفى إلى ما ينهيه إصغاء الواعي ، و تجد منه مضض المرتضى ، و تتحرك له تحرك الممتعض.»(57)

ويمكن أن يكون ابن أئمن قد قصد بترك رسالته على هذه الصورة إلى إشعار ابن تاشفين بضرورة الامتناع و التحرك لإنقاذ الأندلس.

2.3- الإنهاء بإلقاء السلام: وفي هذا النوع ينهى الكاتب رسالته بإلقاء السلام ، دون أن يمهد لذلك بما يوحى باقترب الرسالة من نهايتها.ومنه خاتمة الرسالة التي كتبها ابن عباد لاستصراخ ابن تاشفين ، والتي ختمها بقوله : «...ونزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك ، واستعنت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر، وتحياو شريعة الإسلام ، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة و السلام ، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم والأجر الجسيم ، ولا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والسلام على حضرتكم السامية و رحمة الله تعالى و بركاته.»(58)

وقد تكررت مثل هذه الخاتمة في العديد من الرسائل التي كتبها وزراء بني الأحمر إلى ملوك و أمراء أراغون ، ومنها الرسالة التي وجهها رضوان بن عبد الله وزير السلطان يوسف الأول إلى دون ألفونسو ملك أراغون (59) يطلب منه تسريح من لديه من أسرى المسلمين، والتي ختمها بقوله: «...وأنتم تفعلون في ذلك ما يقتضيه وفاؤكم المشكور وقصدكم المبرور ، و السلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا.»(60).

2.4- أن يعهد الكاتب للخاتمة بالدعاء و ينهيها بإلقاء السلام : ومن هذا النمط ما أنهى به المعتمد بن عباد رسالته في الاستنجد بابن تاشفين- وهي من تحرير كاتبه ابن الجد - حيث ختمها بقوله : «والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الإسلام نشكرها ، ورحمة الله نتحدث عنها و ننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين و ناصر الدين ورحمة الله و بركاته.»(61) و على هذا النمط أيضا كانت معظم خواتم الرسائل التي بعث بها ملوك بني الأحمر إلى ملوك أراغون (62) كما ختم به عدد كبير من رسائل

2.5- أن يعلن الكاتب عن استيفاء غرض الرسالة ثم يتلوه بالدعاء للمرسل إليه قبل أن يختم بإلقاء السلام. ومن هذا النوع كانت خاتمة عدد كبير من رسائل الريحانة ، ومنها الرسالة التي كتبها أبو الحجاج إلى أبي عنان المريني - يخبره فيها بانتصاره على القشتاليين و يشكره على ما يتلقاه من مساعداته- و التي ختمها بقوله : «...هذا ما تزيد عندنا ، أردنا به إعلامكم و خاطبنا بمضمونه مقامكم ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، و السلام الكريم عليكم و رحمة الله »(64).

و إذا كانت هذه هي أهم الكيفيات التي ختمت بها الرسالة الدبلوماسية ، فليس معنى ذلك أنها لم تخرج عن هذه الأنماط أبدا ، أو أنها صيغت جميعها في قالب واحد ، بل كان الكتاب يحتفظون لأنفسهم بكثير من الحرية للتحرك ضمن هذه الأطر الفضفاضة ، وليعبروا عن كل حالة بما يناسبها ، فيحورون مثلا في صيغة إلقاء السلام بحيث تتناسب مع خصوصية المرسل إليه و لا تتعارض مع غرض الرسالة ، وهذا ما نلاحظه في الكيفيات التي يلقي بها السلام على الملوك من غير المسلمين ، فإذا كانت العادة قد جرت على أن يقال للمسلمين: «و السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته» أو ما يقاربها من الكيفيات ، فإن إلقاء السلام على ملوك النصارى ، في حالة السلم و المهادنة ، يكون -عادة- بصيغة: «و السلام يراجع سلامكم كثيرا أثيرا» وقد تكررت هذه الصيغة أو ما يشبهها في معظم الرسائل التي كتبها ملوك بني الأحمر و وزراؤهم إلى ملوك أراغون ووزرائهم (65) ولكن الصيغة تتغير في حالة توتر العلاقات بينهم و بين ملوك المسلمين ، وهذا ما نراه في الكيفية التي ختم بها المعتمد بن عباد رسالته إلى ألفونسو السادس ، بعد أن تلقى تهديده ، حيث ختمها بقوله: «...و السلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل و خدعه».(66)

ومما تقدم يمكن القول بأننا قد تعرفنا ، حتى الآن ، على أهم المفاصل التي كونت البنية الخارجية للرسالة الدبلوماسية ، و تعرفنا على بعض

مميزاتها ، ولكن الخصائص الفنية لهذه الرسالة تظل غامضة و لا تتضح ملامحها إلا إذا تعرفنا على أهم الوسائل التي كونت بنيتها الداخلية ، ممثلة في لغتها و بنية عبارتها .

ثانيا : لغة الرسالة الدبلوماسية و بنية عبارتها

إذا كان تحديد الشكل الخارجي لبنية الرسالة لا يثير الكثير من الخلاف ، فإن عناصر البنية التي كونت هيكلها تظل صعبة التحديد ، بسبب تعدد الزوايا أو الجوانب التي يمكن أن تدرس منها تلك البنية أو البنيات الداخلية ، بحيث يمكن -على سبيل المثال- أن يدرس تشكيل الصورة أو التشكيل الصوتي ، أو بناء الجملة و ما يتفرع عنها من دلالات ، أو غير ذلك من المفاتيح التي يمكن اعتمادها لدراسة البنية الداخلية للنص الأدبي ، وليس من السهل دراسة النص باستعمال كل هذه المفاتيح ، ولذلك فإننا سنكتفي بالتوقف عند بناء العبارة لأنها أكبر و أهم وحدة في بناء هيكل الرسالة الدبلوماسية ، ولكننا لن نتناولها من كل أبعادها ، وإنما نكتفي بتناولها من حيث هي وحدة دلالية تؤديها بنية لغوية وفق قواعد معينة ، ومن حيث هي تشكيل فني تؤديه البنية اللغوية أيضا ، ولكنها لا تكتفي فيه بتأدية المعنى ، وإنما تحاول تأديته بتحويله إلى مضمون فني جميل ، وبتعبير أكثر اختصارا يمكن أن نقول بأننا سنتناول العبارة من حيث هي تركيب لغوي يخضع -وهو يؤدي وظيفته وقوانينها، ومن حيث هي تشكيل فني يلتزم بقواعد التبليغية- لقواعد اللغة الصنعة الفنية ومتطلباتها .

1- تركيب العبارة :

لم تبين العبارة في الرسالة الدبلوماسية على نمط واحد ، وإنما اختلف بناؤها باختلاف العصور ، وتطور بتطور المهمة المنوطة بها، بحيث نراها وهي تبدأ بسيطة قصيرة تكتفي من وجودها بأداء مهمة التبليغ الموكلة إليها في أقصر مسافة و أقصر وقت ممكن ، ولكن تعقد الحياة ، ومنها الحياة

الدبلوماسية اضطر العبارة إلى التجليب بعدد من المراسم التي أصبحت ، مع الزمن ، من صميم مهمتها التبليغية ، وبذلك تعدد جسمها واستطال حتى أصبح يصعب على المتلقي -في بعض الأحيان- ملاحقتها واستيعاب ما فيها ، وستتضح هذه الفكرة باستعراض بعض النماذج من أوائل العصر وأواخره .

فإذا رجعنا إلى الرسالة التي تضمنت العهد الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى الملك تدمير ، وجدناها تستعمل من العبارات أقصرها وأقلها امتدادا ، وهذا واضح منذ العنوان الذي جاء-كما رأيناه :-

«بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش» فهو ، كما نرى ، لم يتضمن أي لقب من ألقاب التكريم والتبجيل ، ولم يشير إلى محتوى الرسالة في عنوانها ، وإنما اكتفى بتحديد المرسل والمرسل إليه .

و تبدو العبارة في عنوان الرسالة التي رد بها عبد الرحمن الأوسط على الإمبراطور تيوفيلس أكثر تقشفا ، إذ استهلها بقوله :

«بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فقد بلغني كتاب تذكر فيه...» .

و يذكرنا الاختصار والتقشف ، في هذه العبارات ، بالبساطة التي كانت عليها الكتابة في الجاهلية وصدر الإسلام ، والتي اعتبرها الدكتور زكي مبارك خاصية من خواص كتابة الرسائل آنذاك ، حيث قال : «...ومن خواص الكتابة عدم التأنيق في البدء و الختام ، فقد كانت الجاهلية تكتب في أول كتبها «باسمك اللهم» ثم تكتب من فلان إلى فلان و يعضون في الغرض ، وكان النبي يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول :من محمد رسول الله إلى فلان.»(67).

ولكن الأمور تتطور في القرن الخامس ، وتتطور معها العبارة في الرسالة الدبلوماسية ، بحيث لم يعد الكتاب يقتنعون في مقدمات رسائلهم بتحديد المرسل والمرسل إليه ، وإنما أصبحوا يحرصون على أن يتضمن عنوان الرسالة غرضها أيضا ، وبذلك تطول عبارتها و تمتد على مساحة أوسع من نبي قبل ، وهذا ما نراه في مقدمة الرسالة التي كتبها ابن عبد البر على ألسنة أهل بربشتر بعد الفاجعة المشهورة سنة 456 هـ ، حيث جعل عنوانها :

« من الثغور القاصية و الأطراف النائية ، المعتقدين للتوحيد ، المعترفين ، والوعيد المستمسكين بعروة الدين ، المستهلكين في حماية المسلمين ، بالوعد المعتصمين بعصمة الإسلام ، المتآلفين على الصلاة و الصيام ، المؤمنين بالتنزيل المقيمين على سنة الرسول محمد نبي الرحمة و شفيع الأمة ، إلى من بالأمصار الجامعة و الأقطار الشاسعة بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين و حماة المسلمين ، ورعاة الدين من الرؤساء و الرؤوسين ، سلام عليكم... » (68) فهذه العبارة التي لم تتضمن -ظاهرياً- إلا العنوان الذي حدد المرسل والمرسل إليه ، امتدت ولم تتوقف إلا بعد أن استوفت عدداً من صفات المرسل و عدداً من صفات المرسل إليه ، وبذلك شرعت الرسالة في تأدية مهمتها التبليغية من خلال العنوان الذي أشار إلى موضوعها و الغرض منها بوضوح تام .

ولم تطل العبارة في العنوان ، للإشارة إلى غرض الرسالة فقط ، وإنما طالت -في بعض الأحيان- لاستيفاء متطلبات الجامعات الدبلوماسية التي تقتضي الحرص على إبراز الألقاب السلطانية و تعدادها على سبيل التفضيم و التكريم ، ومن أمثلة ذلك مقدمة الرسالة التي كتبها السلطان يوسف الأول إلى ذون بطره ملك أراغون ليطالبه برفع الضيم الذي وقع على رعاياه من سكان الحدود المجاورين لمملكة أراغون ، والتي استهلها بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه وسلم تسليماً .

السلطان الأجل ، المرفع المكرم ، المبرور الأوفى ، الأشهر المشكور الأخلص ، دون بطره ملك أراغون وبلنسية و ميورقة و سردانية و قرسغة و قمط برجلونة و ريشليون ، وصل الله عزته بتقواه ، و أسعده بطاعة الله و رضاه ، مكرم مملكته الحافظ لعهد الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر سلطان غرناطة و مالقه و المرية و وادي آش و ما إليها و أمير المسلمين ، أما بعد : فإننا كتبناه إليك من حمراء غرناطة - حرسها الله... » (69). فالعبارة ، هنا ، قد طالت بما حملته من ألقاب المرسل و المرسل إليه ، وهي إنما فعلت ذلك لغرض دبلوماسي و هو الحرص على إبراز المستوى الممتاز للعلاقة

المتكافئة بين الدولتين .

وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن العبارة في الرسالة الدبلوماسية قد بلغت مداها في الطول و غايتها في الصنعة على يد ابن الخطيب . و يعيننا هنا ، جانب الطول الذي يعد من أهم مميزات العبارة عنده . ومن أمثلة ذلك مقدمة الرسالة التي كتبها على لسان سلطانه في الاستنجاد بالسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني ، والتي استهلها -بعد الافتتاح المحذوف- بقوله : «المقام الذي يصرخ و ينجد ، ويتهم في سبيل الفضل و ينجد ، ويسعف و يسعد ، و يبرق في سبيل الله و يرمع ، فيأخذ الكفر من عزماته المقيم المقعد ، حتى ينجز من نصر الله تعالى الموعد . مقام محل أخينا الذي حسن الظن بمجده جميل ، وحد الكفر بسعده كليل ، وللإسلام فيه رجاء و تأميل ، ليس للقلوب عنه مميل ، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى و عزمه الماضي لصولة الكفر قامعا و تدبيره الناجح لشمع الإسلام جامعا ، و ملكه الموفق لنداء الله مطيعا و ملتزم إجلاله و إكباره ، المعتد في الله بكرم شيمته و سامعا ، معظم مقداره طيب نجاره ، المستظهر على عدو الله بإسراعه إلى تدمير الكافر و بداره .

سلام كريم عليكم و رحمة الله و بركاته ، أما بعد حمد الله مجيب دعوة السائل ، و متقبل الوسائل ، و متيح النعم الجلائل ، مريح من عامله في هذا الوجود الزائف الزائل . الأيام القلائل بالمتاع الدائم الطائل ، و النعيم غير الحائل ، و مقيم أود الإسلام المائل بأولى المكارم من أوليائه و الفضائل ، و الصلاة و السلام على سيدنا و مولانا محمد رسوله المنقذ من الفوائل ، المنجي من الروع الهائل ، الصادع بدعوة الحق الصائل بين العشائر و الفصائل ، الذي ختم به و برسالته ديوان الرسل و الرسائل ، وجعله في الأواخر شرف الأوائل ، فحبه كنز العائل و الصلاة عليه زكاة القائل ، و الرضا عن آله و صحبه و عترته و حزبه تيجان الأحياء و القبائل ، المتميزين بكرم السجايا و طيب الشمائل ، و الدعاء لمقام أخوتكم في البكر و الأصائل بالسعد الصادق

المخايل و الصنع الذي تتبرج مواهبه تبرز العقائل و النصرالذي تهزله الصعداد الملد عطف المترانح المتخايل ، فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم عزايانح الخمائل ونصرا يكفل للكتائب المدونة في الجهاد و مرضاة رب العباد بسرد المسائل و إقناع المسائل من حمراء غرناطة - حرسها الله...» (70).

ولا شك أن طول العبارة في هذه المقدمة طول مفرط وهو ، كما نرى ، لم يقتصر على المبالغة في تضخيم المرسل إليه ، و إنما أطلال عبارة الانتقال إلى غرض الرسالة أيضا ، فتكونت عنده من جمل كثيرة ، لأنها بدأت مع قوله : « أما ، التي قامت مقام أداة الشرط و فعله ، ولم يكتمل معناها إلا مع نهاية جواب الشرط الذي اقترن بالفاء في قوله : « فإننا كتبناه إليكم ...من حمراء غرناطة...» .

وقد تكررت هذه الظاهرة في رسائل ابن الخطيب الدبلوماسية (71) حتى أصبحت ميزة من مميزات أسلوبه الذي يرى فيه الدكتور شوقي ضيف إطنابا مسرفا ، حيث يقول : « و إنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارئه نشاطه ، لأن منظر المعاني ينحصر أمام بصره انبساطا يخرجها عن حيز التنوع إلى حيز الاستمرار و الإملال » (72).

ولكن الذي يجب ألا نهمله في هذه العبارات الطويلة هو أنها قد وظفت جميعها لخدمة غرض الرسالة ، بحيث يأتي معنى التحميد و معنى الصلاة على النبي و الدعاء بعدهما لخدمة فكرة الاستنجاد التي ترمي إليها الرسالة . وعلى الرغم من صعوبة تفسير ظاهرة التطويل التي أصابت عبارة الرسالة الدبلوماسية على يد ابن الخطيب ، تفسيرنا مقتعا ، فإنه يمكن أن يكون قد قصد بها إلى المحافظة على هيبة و فخامة المراسلات السلطانية ، وقد يكون المقصود بقولها هو المبالغة في تضخيم المرسل إليه لإشعاره بضخامة مسؤوليته في الدفاع عن الأندلس .

ولكن ليس معنى ذلك أن الرسالة الدبلوماسية كانت تكتب من قولها إلى آخرها بهذا النوع من العبارات -كما قد يفهم من كلام الدكتور شوقي ضيف- بل مثلت العبارات الطويلة فيها ظاهرة متميزة ، ولكنها لم تتجاوز المقدمة ،

أما بقية الرسالة فقد كانت تكتب بعبارات عادية ؛ تطول دون مبالغة ، حيناً ، وتقتصر أحياناً .

وإذا كان تركيب العبارة بهذا الشكل قد اقتضت وظيفتها التبليغية ، و تحكمت فيه خصوصية المضمون الذي سخرت تلك العبارة لأدائه بين مصدر و مورد تحكمهما علاقة متميزة ، فإن الكتاب - باستثناء كتاب أوائل العصر - لم يكونوا يكتفون بتأدية المضمون أو يقنعون بتأديته كيفما اتفق ، وإنما كانوا يحرصون على تغنيته في شكل فني جميل أيضاً ، ولذلك نراهم يهتمون بالصنعة و يعتنون بجمع وسائل التجميل الضرورية لتشكيل عباراتهم .

2- تشكيل العبارة :

إذا كانت مرحلة التركيب اللغوي تمثل الحد الأدنى الذي يمكن اللغة من أداء وظيفتها التبليغية ، فإن مرحلة التشكيل أو الصنعة الفنية - التي لا يمكن تصورها دون المرور بمرحلة التركيب اللغوي - هي التي تمثل الحد الفاصل بين النثر العادي الذي لا يشكل موضوع دراسة و بين النثر الفني الذي يحظى بعناية الدارسين واهتمامهم . وإذا كانت مرحلة التركيب النحوي - بطبيعة قوانينها الصارمة - تحد من قدرة الكتاب على التمايز ، فإن مرحلة التشكيل الفني هي التي تفتح لهم فرص التفرد و تمكنهم من التقلب على صرامة القواعد و تطويعها لمتطلبات الصنعة الفنية ، على أن الصنعة الفنية لا تعني ، هنا ، ما عناه الدكتور شوقي ضيف ، حينما جعلها مرحلة من مراحل التجويد تصبق مرحلتها التصنيع و التصنع (73) و إنما تعني كل ما يتجاوز مرحلة التركيب اللغوي ، التي رأيناها ، و يدخل مرحلة التجويد الفني ، بغض النظر عن مستوياتها التي يمكن أن تكون صنعة أو تصنيعاً أو تصنعاً .

والصنعة ، كما هو معلوم ، أنواع و مستويات كثيرة ، فمنها ما يتعلق بالقيم التصويرية ، و منها ما يخص القيم الصوتية أو الموسيقية ، ومنها ما لا يمكن تصور وجود العمل الفني بدونه ، ومنها ما هو تكميلي هو ضروري يمكن الاستغناء عنه ، ولكن يؤتى به للزخرفة و التمليع . وإذا كنا لا نستطيع

أن نحدد عناصر الجمال في العبارة ، بدقة ، فإن الدارسين من قدماء و محدثين قد تواضعوا على وصف العبارة الجميلة بمجموعة من الصفات ، كالبلافة و الفصاحة و البيان ، وعلى الرغم من صعوبة تحديد المقصود بهذه المصطلحات ، حينما يتعلق الأمر بالجانب التطبيقي ، فإنه يمكن ، بالاعتماد على ما أورده الدكتور على بن محمد (74) أن نختصر مقومات الجمال في العبارة -بعد صحة تركيبها - في جانبين متكاملين ، هما :

1-البساطة و الوضوح

2- إتقان الصنعة .

أما بساطة العبارة ووضوحها فتكون -كما هو معروف- في خلوها من دها عن التقعر ، لأن غرابة الألفاظ تؤدي إلى استغلاق المعنى ، الغرابة وهو مضاد للمقصود من البيان الذي يعني الوضوح و الظهور ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في العبارة إذا ركبت على غير مقتضى الحال ، أو جاء تركيبها معقدا غامضا ، سواء أنتج ذلك عن أم عن تقعر و معاطلة .

وإذا كانت النصوص التي بين أيدينا لا تتسم كلها بالبساطة ، لأنها لا تخلو من صنعة ، كما رأينا ، فإنها قد اتسمت كلها بالوضوح الذي يعد مكسبا من المكاسب الجمالية - من وجهة نظر النقد القديم على الأقل - كما يعد ضرورة من ضرورات الرسالة الدبلوماسية التي يجب أن تكون لغتها على قدر كبير من الوضوح و الصفاء .

ولعله يحسن بنا بعد أن تحدثنا عن هيكل الرسالة الدبلوماسية ، و تعرفنا على بعض مميزات البناء اللغوي لعبارتها ؛ التي رأيناها وهي تبدو طويلة مفرطة في الطول - حينما تكون في مقدمة الرسالة - أن نتوقف عند بعض النماذج من متن الرسالة لنرى أن العبارة فيها تتخلى عن الطول الذي بدت عليه في المقدمة ، لتميل إلى الاعتدال والتوسط أو القصر ، ولكننا لن نكتفي ، هنا ، بالتوقف عند جانب البناء اللغوي ، وإنما نحاول التوقف عند واحد من جوانب الصنعة التي شاعت في نشر ذلك العصر ، وأعني به الجانب الصوتي أو الموسيقي الذي اعتمد كتاب الرسالة الدبلوماسية في إبرازه على

السجع و أنماط من التلوينات الصوتية المختلفة . وقد تطورت الصنعة الموسيقية مع الزمن و تنوعت مستوياتها و اختلفت باختلاف الكتاب .

وإذا تجاوزنا النماذج الأولى التي رأينا بساطتها و خلوها من السجع وانتقلنا إلى نماذج القرن الخامس -وهو كما يقول الدكتور علي بن محمد : القرن الذي نشأ فيه السجع الأندلسي «نشأته الفنية الواسعة ، وفيه استكمل مقوماته ، وفيه غدا عنوانا على البراعة ، قلما يضحي الكتاب به أو بفرطون فيه » (75) -ونماذج القرون التي تلتها فإننا نجد السجع فيها يختلف من كاتب لآخر ، و يختلف لدى الكاتب الواحد من رسالة لأخرى ، بل و يختلف في الرسالة الواحدة من فقرة إلى أخرى أحيانا . وحيث إن المجال لا يتسع لضرب الأمثلة فإننا سنكتفي ، هنا ، بإعطاء فكرة موجزة عن بعض الرسائل على أن نتوقف عند فقرة من رسالة ابن عبد البر التي كتبها على ألسنة أهل بربشتر ، لنرى إلى أي مدى استطاع السجع أن يتجاوز الوظيفة التبليغية إلى الوظيفة التعبيرية عند بعض الكتاب .

وإذا استعرضنا بعض النماذج التي ذكرناها في حديثنا عن المقدمة ، فإننا نستطيع القول بأن المعتمد بن عباد كان يحرص على السجع ، ولكنه لم يكن يحرص على الموازنة بين فواصل أسجاعه (76) أما ابن أيمن فقد كان ، في الرسالة التي كتبها على لسان سلطانه إلى يوسف بن تاشفين ، أكثر حرصا من المعتمد على السجع و على الموازنة بين الفواصل فيه (77) ومثله في الحرص على السجع و الموازنة بين فواصله أبو القاسم بن الجد ، كما يبدو في الرسالة التي كتبها على لسان المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين (78).

وأما مجموعة الرسائل التي بعث بها ملوك بني الأحمر ووزرائهم إلى ملوك أراغون ووزرائهم ، خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، فإننا لا نستطيع -رغم ذكر ابن الخطيب لعدد من كتاب الدولة النصرية في هذه المرحلة - (79) أن ننسبها لكاتب معين ، ولكننا نلاحظ تشابها كبيرا في أساليبها ؛ التي لم تلتزم السجع إلا في المقدمات التي تمثل المراسم الدبلوماسية ، أما متن الرسالة فيها فكان يأتي مرسلا .

ويبقى ابن الخطيب ، فيما كتبه من رسائل دبلوماسية ، ظاهرة متميزة في قدرته على الإطالة و على المزاجية بين السجع و الإرسال .

وإذا كانت تلك هي الصورة التقريبية الموجزة لما كانت عليه صنعة السجع في الرسالة الدبلوماسية في الأندلس ، فإن ابن عبد البر يبقى - في تقديرنا - من الكتاب الذين استطاعوا تحويل أنغام السجع إلى وسيلة تعبيرية ، في تلك الرسالة التي كتبها على السنة أهل بربشتر . وما جاء فيها قوله يخاطب الأندلسيين : «...قلو رأيتم معشر المسلمين إخوانكم في الدين ، وقد غلبوا على الأموال و الأهلين ، واستحكمت فيهم السيوف ، واستولت عليهم الحتوف ، وأثخنتم الجراح ، و عبثت بهم رزق الرماح ، وقد كثر الضجيج والعويل و النياح ، و دماؤهم على أقدامهم تسيل ، سيل المطر بكل سبيل ، ورؤوسهم قدامهم تطير ، وقلوبهم في أجسادهم تستطير ، ولا مغيث ولا مجير ، وقد صمت الأذان بصراخ الصبيان ، و نياح التسمان و بكاء الولدان ، وعلت الأصوات و فشت المنكرات ، وتمرد الشيطان ، واشتهر الطغيان ، و ظهرت الصليان ، و أقصحت النواقيس و جلحت الأباليس ، وسعرت طغاة الخنازير ، وصارت الدور كالتنانير ، دماء تفسك ، وستورتهتك ، و حرم تنتهك ، ونعم تستهلك ، و أقفاء تصفع ، و أعضاء تقطع ، و أعياء ترتكب ، و أثاث ينتهب ، و مصاحف تمزق ، و مساجد تحرق...» (80).

وأول ما نلاحظه في القطعة - و الرسالة كلها على هذا المنوال - هو أنها جاءت ، من أولها إلى آخرها ، خالصة للسجع ، بحيث لا نعثر فيها على على فقرة مرسلّة .

والملاحظة الثانية هي أن هذا السجع لم يأت لمجرد الزينة أو الزخرفة ، و إنما أدى بقواصله و أنغامه وظيفة تعبيرية ، ما كان لها أن تكون لولا وجوه ، فقد جاءت تلك القواصل القصيرة لتعبر بتسارع أنغامها المتتالية عن سرعة تنكيل الأعداء بالمسلمين في بربشتر .

و بالإضافة إلى هذه السرعة ، فقد جاءت القطعة ، في قسمها الأول ، أكثر تعبيراً عن آلام المسلمين ، و جاءت ، في قسمها الثاني ، أكثر تعبيراً عن شدة

تنكيل الأعداء بهم .

فإذا أمعنا النظر في القطعة وجدنا أن قوافي فواصل القسم الأول منها قد انتهت كلها بمقاطع شديدة الطول ، فجاءت على النحو التالي : «المسلمين ، الدين ، الأهلين / السيوف ، الحتوف / الجراح ، الرماح ، النياح / تسيل ، سبيل / تطير ، تستطير ، مجير / الآذان ، الصبيان ، النسوان ، الولدان / الأصوات ، المنكرات / الشيطان ، الطغيان ، الصليان / النواقيس الأباليس / الخنازير ، التنانير »

فهذه القوافي وعددها ست وعشرون قد انتهت كلها بمقطع شديد الطول ، مبني على سكون الاستغراق ، وهذا النوع من المقاطع لا يقلل من سرعة التنكيل التي أوحى بها وعبرت عنها الفواصل القصيرة للجمل، وإنما يشعرونا بامتداد آثار التنكيل إلى ما بعده ، وبذلك يكون ابن عبد البر قد عبر عن استمرار آلام أهل بريشتر وامتداد أحزانهم .

أما القسم الثاني من القطعة فقد جاءت قوافي فواصله كما يلي : «تسفق ، تهتك ، تنتهك ، تستهلك / تصفع ، تقطع / ترتكب ، ينتهب / تمزق ، تحرق »
فهذه القوافي العشر ، كما نرى ، قد انتهت كلها بمقاطع طويلة مبنية على سكون التركيز : الذي لا يساعد الحركة على الامتداد و الاستمرار ، ولا يمكنها من الاسترخاء ، وإنما يركزها ويكسبها قوة وفعالية أكبر ، وبذلك يمكن أن نقول بأن قوافي هذا القسم قد عبرت عن سرعة و قوة بطش الأعداء ، و أوحى بما في أفعالهم من وحشية .

وإذا كان هذا النوع من السجع التعبيري قليلا في الرسالة الدبلوماسية ، فذلك ، في تقديرنا ، أمر طبيعي لأن هذا النوع من السجع يعبر عن مشاعر كاتبه (المرسل) ويهدف إلى استثارة مشاعر المتلقي (المرسل إليه) ؛ وهذه مسألة من المسائل التي يستحسن أن تتجنبها اللغة الدبلوماسية التي يجب عليها أن تحافظ على هدوئها بالابتعاد عن كل ما يهيج المشاعر أو يوتر الأعصاب (81).

ورغم أن النماذج التي استعرضناها لا تمثل الرسالة الدبلوماسية في

كل الأعصر الأندلسية ، ولا تجسد إلا جزءا من الرسائل التي بعث بها عدد من وأمرائها إلى جيرانهم من ملوك النصارى ، أو إخوانهم من ملوك الأندلس ملوك المسلمين في شمالي إفريقيا ، فإن الخلاصة الموجزة التي يمكن الخروج بها مما تقدم هي أن الرسالة الدبلوماسية في الأندلس ظلت دائما مرتبطة بواقع الأندلسيين و منطلقة من جغرافيتهم التي حتمت عليهم مجاورة الممالك النصرانية و أجبرتهم على تبادل المصالح و العلاقات الإنسانية معها ، ولهذا فقد كانت مهمة الرسالة الدبلوماسية و وظيفتها الأساسية هي أن تضمن استمرار الهدوء الضروري لاستمرار تبادل المصالح بين الأمتين المتجاورتين ، وحتى حينما كانت الرسالة تتجه إلى ملوك المغرب فإنها -في الحقيقة- تتخذ ذلك المسلك للمحافظة على مصلحة الأندلسيين ، لأنها -في الغالب- لا تتجه إلى المغرب إلا حينما يختل التوازن بين الدولة الإسلامية وجاراتها من الدول النصرانية اختلالا يضر بمصالح الأندلسيين ، أو يهدد وجودهم ، وهذا لا يقع ، عادة ، إلا حينما تفشل الدبلوماسية في أداء وظيفتها التلطيفية بين طرفي المعادلة الأندلسية ، كما حدث ذلك حينما اختل التوازن في عهد ملوك الطوائف لصالح ألفونسو السادس ، أو حينما كان يختل في عهد ملوك بني الأحمر من حين لآخر .

وإذا كانت الرسالة الدبلوماسية في الأندلس قد بدأت بداية بسيطة -كما رأينا في نماذج أوائل العصر- فإنها قد اضطرت مع الزمن إلى تكييف هيكلها ليتلاءم مع التطور المستمر لمتطلبات وظيفتها ، ولم تكد تتجاوز عتبة القرن الخامس حتى اتضحت معالم هيكلها واستقرت معظم قواعدها .

وقد حاولت هذه الرسالة أن تؤدي مهمتها الحضارية -كوسيلة من وسائل الاتصال والحوار الهادئ بين الأمم -بلغة راقية تكسوها اللباقة و يجللها هدوء الاتزان ، ولم تتخل عن لباقتها و هدوئها إلا في حالات نادرة ، مثلما حدث في الرسائل التي تبودلت بين ملوك الطوائف و ألفونسو السادس .

وإذا كانت لغة هذه الرسالة قد بدأت بسيطة تقنع من التراكيب بما يؤدي وظيفتها التبليغية ، فإنها قد تطورت مع الزمن ، بحيث لم تكد تتجاوز القرن

الخامس حتى تجاوزت معه مرحلة التراكيب الضرورية البسيطة ، وابتدعت لنفسها أنماطا من التراكيب التشكيلية ؛ التي اكتست فيها الوظيفة التبليغية بالكثير من زخارف الصنعة -خاصة في مقدمة الرسالة - وظهرت أكثر أناقة و جمالا مما كانت عليه في أوائل العصر ، بل تجاوزت ذلك إلى اكتساب شيء من القدرات التعبيرية ، في بعض الأحيان .

المراجع و الهوامش

- (1) ينظر : أبو هيف ، علي صادق . القانون الدبلوماسي . ط 2 . الإسكندرية : منشأة المعارف ، 1967 م ص ص 10 - 12
- (2) فوق العادة ، سموحي . معجم الدبلوماسية و الشؤون الدولية . بيروت : مكتبة لبنان ، 1986 م . ص 127
- (3) Larousse, grand Larousse encyclopédique. en dix volumes. 1977. tome 4ème art ; Diplomatie Paris,
- (4) أبو هيف . المرجع السابق . ص 87
- (5) المقرئ ، أحمد بن محمد . نفح الطيب . تحقيق : إحسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1968 م . ج 4 ، ص 322 . و المقصود بالوزير هنا ، هو رئيس الحكومة أو الوزير الأول .
- (6) المقرئ ، أحمد بن محمد . أزهار الرياض في أخبار عياض . تحقيق : مصطفى السقا و آخرين . القاهرة : 1939 م . ج 1 ، ص ص 72-83 .
- (7) نفسه . ص ص 108 - 115
- (8) ابن محمد ، علي . النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس . ط 1 . بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1190 م . ج 2 ، ص 482 .
- (9) الضبي ، أحمد بن عميرة . بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل

- الأندلس. طبعة ريبييرا . مدريد : 1884 ، 1885 م. ص 259.
- (10) عنان ، محمد عبد الله . دولة الإسلام في الأندلس . ط 3. القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1988م . ع 1 ، ق 1 ، ص 139 .
- (11) هو تيوفيلس théophile بن ميخائيل الثاني من الأسرة الفريجيانية ، حكم الإمبراطورية البيزنطية من 829 إلى 842 م وهو الذي هزمه المعتصم العباسي في موقعة عمورية الشهيرة .
(Mourre ,Michel)

Dictionnaire encyclopédique d'histoire (t.z) art :
théophile

- (12) بروفنسال ، ليفي . الحضارة العربية في اسبانيا . ترجمة : الطاهر أحمد مكي . ط 2. دار المعارف بمصر ، 1985 . ص 103 .
- (13) حمادة ، محمد ماهر . الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقيا . ط 1 . بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1980 م . ص 146
- (14) الكلاعي ، محمد بن عبد الغفور . إحكام صنعة الكلام . تحقيق : محمد رضوان الداية . بيروت : دار الثقافة ، 1966 م . ص 51 - 54 .
- (15) نفسه . ص 55 - 56 .
- (16) نفسه ، ص 56 - 58 .
- (17) أتوات ، الطاهر محمد . أدب الرسائل في المغرب العربي - في القرنين السابع و الثامن . الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1993 م . ص 390
- (18) ابن منظور ، محمد . لسان العرب . تحقيق : عبد الله علي الكبير و آخرين . ط 3 . دار المعارف بمصر . مادة : (صلا) 22 .
- (19) مجهول . كتاب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . تحقيق : سهيل زكار ، وعبد القادر زمامة . ط 1 . الدا البيضاء : دار الرشاد والحديثة ، 1979 م . ص 45 .
- (20) ابن محمد ، علي . المرجع السابق . 2 : 482 ، 483 .

- (21) الكلاعي . المرجع السابق . ص 53
- (22) هو خايمي الثاني (Jacques II) بن بيدرو الثالث ، خلف أخاه ألفونسو الثالث على عرش أراغون سنة 1291 و توفي سنة 1327 م
(Mourre.Ibid. tome (g.j) art jacques)
- (23) أرسلان ، الأمير شكيب . الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية . بيروت : دار مكتبة الحياة . ج 2 ، ص ص 286 - 289 .
- (24) هو الملك بيدرو الرابع (Pierre IV) بن ألفونسو الرابع وخليفته على عرش أراغون منذ سنة 1336 إلى 1387 م .
(Mourre. Ibid. tome (N.P) art : pierre)
- (25) أرسلان . المرجع السابق . 2 : 234 ، 235 .
- (26) نفسه . ص ص 241 ، 242 .
- (27) نفسه . ص ص 290 - 324 .
- (28) المقصود بالملك القشتالي ، هنا و هو فرناندو الثالث ، وقد راسله أبو جعيل بعد أن سقطت دولته ببلنسية سنة 636 هـ ، ونزح إلى مرسية .
- (29) القلقشندي ، أبو العباس . صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1963 . ج 7 . ص 116 .
- (30) الكلاعي . المرجع السابق . ص ص 84 - 85 .
- (31) محمد ، فاضل زكي . الدبلوماسية في النظرية والتطبيق . ط 2 . بغداد : وزارة الثقافة والإرشاد ، 1968 م . ص 97 .
- (32) ألفونسو السادس ، هو ألفونسو بن فرناندو الأول . عينه أبوه على رأس مملكة ليون سنة 1064 م ، ثم استولى على مملكتي قشتالة والبرتغال . عاصر ملوك الطوائف والمرابطين ، وتوفي سنة 1109 .
(عنان . دول الطوائف . ص ص 375 - 387)
- (Mourre .Ibid. tome (A.B) art :

(Alphonse)

- (33) مجهول . الحلال الموشية . ص ص 39 - 40
- (34) مجهول . الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية . نشر : محمد بن أبي شنب . الجزائر : 1920 م . ص ص 159 - 161
- (35) القلقشندي . المرجع المذكور . 7 : 39
- (36) نفسه . 7 : 56
- (37) ابن الخطيب ، لسان الدين . ريحانة الكتاب و نجعة المنتاب . تحقيق : محمد عبد الله عنان . ط 1 . القاهرة : مكتبة الخانجي ، 1980 م ج 1 . ص 127
- (38) نفسه . 1 : 330
- (39) نفسه . 1 : 269 - 270
- (40) هو ألفونسو بن فرناندو ، ولكنه نسب نفسه ، هنا ، إلى جده سانشو الكبير على سبيل الافتخار .
- (41) مجهول . الحلال الموشية ، ص ص 38 ، 39
- (42) حمادة ، محمد ماهر . المرجع السابق . ص 256
- (43) هو ألفونسو الثامن الملقب بالنبييل خلف أباه سانشو ، وهو صبي عل عرش قشتالة التي حكمها من 1158 إلى 1214م ، وهو الذي هزم الموحيدين في موقعة العقاب المشؤومة سنة 609هـ (مور . نفسه ، مادة ألفونس).
- (44) ابن خلكان ، أحمد بن محمد . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق : إحسان عباس . بيروت : دار صادر ، 1977م . ج 7 ، ص ص 6 ، 7 .
- (45) أظنه خايمي الأول بن بيدرو الثاني ، لأنه هو الذي نازعه عماه سانشو و فرناندو ، ولكنه تغلب عليهما في الأخير (عنان . نهاية الأندلس . ص 91)
- (46) القلقشندي . المرجع السابق . 6 : 534 ، 535
- (47) أرسلان . المرجع السابق . 2 : 304 ، 305

- (48) ابن الخطيب . ريحانة الكتاب. 1 : 286
(49) أرسلان . المرجع السابق . 2 : 235 ، 239 ، 323
(51) لكلامي . المرجع السابق . ص 58
(52) أرسلان . الحلل السندسية . 2 : 299
(53) نفسه . 2 : 235 ، 239 ، 243 ، 321
(54) نفسه ، 2 : 323
(55) مجهول . الحلل الموشية . ص 37
(56) حمادة ، محمد ماهر . المرجع السابق ص ص 148 ، 149
(57) ابن بسام ، علي . الذخيرة في محاسن أسل الجزيرة . تحقيق :
إحسان عباس . ليبيا - تونس : الدار العربية للكتاب ، 1978م . 2 / 2
655 ، 656 :
(58) مجهول . الحلل الموشية . ص 46
(59) هو ألفونسو الرابع (Alphonse IV) بن خايمي الثاني و خليفته
على عرش أراغون ، حكم من سنة 1327 إلى 1336
(Mourre. Ibid. tome (A.B) art :
Alphonse) (60) أرسلان . المرجع المذكور . 2235 ، 239
(61) مجهول . الحلل الموشية . ص 48
(62) أرسلان . المرجع السابق . 2 : 292 ، 294 ، 304 ، 305 ، 306 ،
(63) ابن الخطيب . ريحانة الكتاب. 1 : 146 ، 151 ، 152 ، 159 ...
(64) نفسه . 1 : 134 ، 139
(65) أرسلان . المرجع المذكور . 2 : 229 ، 325
(66) مجهول . الحلل الموشية . ص 41
(67) مبارك ، زكي . النثر الفني في القرن الرابع . القاهرة : دار الكتاب
العربي للطباعة و النشر ، ج 1 ، ص 68.
(68) ابن بسام . الذخيرة . 3 / 1 : 174 .
(69) أرسلان . المرجع المذكور . 2 : 232

- (70) ابن الخطيب . ريحانة الكتاب . 1 : 375 ، 376
- (71) و منها رسالته في استنهاض أحد سلاطين بني مرين أيضا ؛ التي تركبت عبارة الانتقال فيها من عشرين جملة (نفع الطيب . 4 : 412 ، 413)
- (72) ضيف ، شوقي . الفن و مذاهبه في النثر العربي . ط 5 . دارالمعارف بمصر . ص 334
- (73) ضيف ، شوقي . المرجع المذكور . ص ص 9 ، 10
- (74) ابن محمد ، علي . المرجع السابق . 2 : 633 ، 646
- (75) نفسه . 2 : 654
- (76) مجهول . الحلل الموشية . ص ص 39 - 41
- (77) ابن بسام . الذخيرة . 2 / 3 : 655
- (78) مجهول . الحلل الموشية . ص ص 46 - 48
- (79) ابن الخطيب . اللحة البدرية في الدولة النصرية . تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي . ط 3 . بيروت : دار الآفاق الجديدة ، 1980م ص ص 61 - 104
- (80) ابن بسام . الذخيرة . 1 / 3 : 175 ، 176
- (81) شباط ، فؤاد . الدبلوماسية . ط 7 . دمشق : جامعة دمشق ، 1993 . ص 170
- *الدكتور الربيعي بن سلامة أستاذ محاضر بمعهد الآداب و اللغة العربية جامعة قسنطينة-الجزائر-